بسم الله الرحمن الرحيم

إن في البحر شياطينَ مسجونةً!

الحمدُ للهِ...

ملك معظم ونبي مكرم!

حديثي اليوم عن فتنةٍ مرعبة، فتنةٍ لا تأتي بسيفٍ، ولا بسلاح، ولا تأتي بجيوشٍ ولا بدبابات، إنها فتنة تأتي بآيةٍ تُتلى، وكلمةٍ تُقال، ونصٍّ يُحمَل على غير مراد الله.

في زمنٍ مضى، كانت الشياطين مسخرة لملك مُعظَّم ونبي مُكرَّم، طوَّعهم في قهره، وقهرهم بسلطانه بإذن الله، ذلكم هو نبي الله سليمان ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ سبأ: ١٢ في قدرات مهولة، وتسخير يعجب عنه الوصف﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ ص: ٣٧ قال ابن كثير: "منهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة، من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفةٌ غواصون في البحار يستخرجون مما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي

لا توجد إلا فيها، ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾ ص: ٣٨ ، مُوَثَّقُون في الأغلال والأكبال ممن قد تمرد وعصّى، وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى".

وهذا التسخير من الجن لسليمان كان من خصائصه، قال ابن تيمية: "فليس أحدٌ من الناس تطيعه الجن طاعة مطلقة، كما كانت تطيع سليمان بتسخير من الله وأمر منه، من غير معاوضة"[1]، بل جاء في الصحيح أن النبي ﷺ كان يصلي صلاة الصبح، فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال: "إن عفريتًا من الجن تفلَّت البارحة ليقطع عليّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعي هاتين ولولا دعوة أخي سليمان﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ﴾ص: ٣٥ لأصبح مربوطًا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة" [2].

تصفيد من عهد سليمان إلى اليوم!

وهنا يتبين لنا أن توثيق الشياطين لم يكن أمرًا عارضًا، بل

---

(١) رواه أحمد.

(٢) النبوات (٢/١٠١٤).

كان حقيقةً ثابتة في زمن سليمان، وأنه في عالم الجن شياطينَ أوثقوا وقُيّدوا وسُلبوا القدرة على الإفساد.

من هنا تدرك أن هذه الأمة لا تُترَك لعدوها طليقة، بل يُقيَّد عنها حينًا، ويُكسَر سلطانه حينًا، حتى إذا جاء موسم الإقبال والإنابة، أعلن النبي ﷺ هذه البشرى العظيمة: "إذا جَاءَ رمضانُ صُفِّدتِ الشَّياطينُ ومَردةُ الجِنّ"، فالتصفيد ليس أمرًا مستغربًا في سنن الله، بل هو من مظاهر رحمته بعباده، يَضعُف به سلطانُ الشر وتَخِفّ به دواعي الفتنة.

شياطين مصفدة في البحار!

ولسائل أن يسأل: ماذا حل بشياطين سليمان التي قيدها بالأغلال؟ ما الذي يكون إذا رُفع القيد، وإذا أُطلق الموثَق، وإذا عاد المتمرّد إلى ساحته؟ هنا يجيء الأثر العجيب الذي رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- أنه قال: "إن في البحر شياطينَ مسجونةً أوثقها سليمان، يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنًا".

فتقرأ على الناس قرآنًا! أي فتنةٍ هذه؟ شيطانٌ يقرأ قرآنًا؟ أليس الشيطان عدوًا؟ أليس هدفه الإضلال؟ فكيف تكون الفتنة

بالقرآن؟

هنا مكمن الخطر، ليس الخطر في تحريف الألفاظ، فالقرآن محفوظ بحفظ الله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر: ٩، ولكن الخطر في تحريف المعاني، في ليّ أعناق النصوص، في حمل الآيات على غير ما أراد الله، يُقرأ القرآن لكن يُفسَّر بزيغ، يُستشهد بالآية لكن يُنزَع عنها سياقُها، تُجمع المتشابهات وتُترك المحكمات.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾آل عمران: ٧، تأملوا قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾، فما أكثر اليومَ من يفتشون وينقبون ويجمعون ليصنعوا من الشبهة منهجًا، ومن المتشابه أصلًا، ومن الزيغ طريقًا.

وهنا نفهم معنى ذلك الأثر: "شياطين يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنًا"، ليست الفتنة في مجرد القراءة، لكن الفتنة في الاتباع المنحرف من الأقوال، فقد تُتلى عليك آيةٌ فيحرفها الشيطان على غير مرادها، كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾المائدة: ١٠٥، **فيظن الظان أنها دعوة لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!**

ولذلك قال أبو بكر -رضي الله عنه-: إنكم تضعون هذه الآية في غير موضعها، وذكر قول النبي ﷺ : "إن الناس إذا رأوا ظالمًا فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب"(١).

شياطين تقوم في مجالس الناس!

هذه الشياطين المسجونة متى ما أطلقت فلا تظنن أنها ستأتيك بقرنين، قد تأتيك في صورة رجل، حسنِ المنطق، عذبِ اللفظ، يُحسِن العرْض ويُخفي الغَرَض، يرفع شعار الحق ويُبطن نزعة الهوى، واستمع لأعجب الآثار في ذلك ما روى الإمام مسلم عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: "إنَّ الشَّيْطانَ لَيَتَمَثَّلُ في صُورَةِ الرَّجُلِ، فَيَأْتي القَوْمَ، فيُحَدِّثُهُمْ بالحَديثِ مِنَ الكَذِبِ، فَيَتَفَرَّقُونَ، فيَقولُ الرَّجُلُ منهمْ: سَمِعْتُ رَجُلًا أعْرِفُ وجْهَهُ، ولا أدْرِي ما اسْمُهُ يُحَدِّثُ"، تأملوا... يَعرف وجهه ولا

---

(١) رواه أحمد.

يعرف اسمه! يحفظ ملامحَه ولا يدرك حقيقته! هكذا تعمل الفتنة؛ تمرّ في صورة مألوفة، وتتكلم بلسان معروف، ثم تنصرف وقد زَرَعَت في القلوب شبهة، وفي العقول اضطرابًا، يتكلم بآية ويستشهد بحديث لكن قلبه مملوء زيغًا وهوى.

من غرائب القصص كما رواها أصحابها!

ومن غرائب القصص التي حصلت لابن تيمية التي رواها هو بنفسه أنه كان في بعض فترات حياته محبوسًا في سجن مصر، ومع ذلك شاع في بلادٍ أخرى -في جهة المشرق- أن رجلًا ظهر في تلك البلاد البعيدة، يخاطبهم ويجادلهم ويدعوهم، ويقول لهم: أنا ابن تيمية، فنُقل الخبر إلى ملك مصر أن ابن تيمية خرج ووصل إلى تلك البلاد وفعل كذا وكذا، مع أن الشيخ لم يخرج أصلًا، بل كان في محبسه. فتعجب الناس واستعظموا الأمر، إذ كيف يكون الرجل في السجن، ويظهر في بلاد أخرى يخاطب الأمراء؟

ثم تبيّن -بإخبار ابن تيمية نفسه- أن الذي تمثل لهم لم يكن إنسيًا، وإنما كان جنيًا، فلما قال بعض الحاضرين لابن تيمية: لِمَ لا يجوز أن يكون الذي ظهر ملكًا من الملائكة؟

أجابهم الشيخ جوابًا عقديًا دقيقًا: لا. الملك لا يكذب [1]، لأن هذا الجني كان متمثلاً بصورة ابن تيمية ويحث الناس في المسجد ويقول أنا ابن تيمية، يكذب على الناس!

ذكر المحدث صاحب كتاب فتح الملهم في شرح مسلم قصةً لا تقل عن قصة ابن تيمية غرابة، يقول: "قد رأينا قبل عشرين سنة أن الشيطان تمثل في صورة الدكتور منجانا الإنجليزي، فأخرج قرآناً من وراء البحار، وعرضه على الناس، مع ادعائه أنه مصحف عتيق مخالف لهذه المصاحف الموجودة بأيدي المسلمين شرقًا وغربًا، في كثير من المواضع، وكان غرضه إثبات التحريف في القرآن، ولكن لم يرفعوا له رأسًا، فلم ينجح، بل خاب وخسر، وصار بعد أيام كأن لم يكن شيئًا مذكورًا"[2].

هل باتت الشياطين تقوم في منصات التقنية!

نحن في زمنٍ لم يعد الشيطان يحتاج أن يدخل مجلسًا، بل

---

(١) مجموع الفتاوى (٩٢/١٣).

(٢) (١٣٨/١).

يكفيه أن يفتح حسابًا، ولا يحتاج أن يُعرِّف باسمه، بل يتخفى خلف لقبٍ رنّان، أو صورة عالمٍ موثوق، أو هيئة متخصصٍ معروف، يُغرد باسمٍ مستعار، ويكتب بهويةٍ مزورة، ويضع صورة غير صورته، ثم يبث الشبهة في ثوانٍ، فتطير في الآفاق، وتدخل البيوت، وتستقر في القلوب.

إذا كان ابن مسعود قد قال: "إِنَّ الشَّيْطانَ لِيَتَمَثَّلُ في صُورَةِ الرَّجُلِ، فَيَأْتي القَوْمَ، فيُحَدِّثُهُمْ"

فاليوم نقول: قد يتمثل في صورة حساب، أو هيئة خبير، فيأتي الناس من وراء شاشة فيحدثهم، فليس كلُّ من أحسن التغريد أحسن التأصيل، ولا كل من كَثُر متابعوه صحّ منهجه، ولا كل من لَبِس مسوح العلم كان من أهله.

فاحذروا دينكم أن تأخذوه من شاشة، أو تستقوه من مجهول، أو تُسلّموا عقولكم لمن لا تُعرف أمانتُه ولا يُعرف ثباتُه، فإنه صار كلُّ أحد يتكلم باسم الدين، فمن العاصم؟ وما المُنجي؟ قال ابن سيرين رحمه الله: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم".

ونحن في رمضان، شهرِ القرآن، شهرٍ تُفتح فيه أبواب الجنة

وتُغلق أبواب النار وتُصفَّد مردة الشياطين، فإذا كان أعنفُ الشياطين يُقيَّد في هذا الشهر، فالواجب أن يُقيَّد الهوى في قلوبنا، فرمضان ليس شهر التلاوة فقط، بل شهر تصحيح المفاهيم، ليس شهر ختم الصفحات فحسب، بل شهر ختم الزيغ من الصدور، فإن كان الشيطان يُضعَّف أثره فالواجب أن يقوَّى أثر القرآن، وإن كانت المردة تُصفَّد فالواجب أن نُصفِّد شهواتنا.

من صدق مع الله في طلب الحق هداه الله إليه ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٩، فاسألوا الله الثبات وسلامة القلب، اللهم عصمنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، واحفظ علينا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، واجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا، والحمد لله رب العالمين.

وكُتِبَ في ١٠ / ٩ / ١٤٤٧ هـ

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد